

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

يمكن نقاحص التراث النقدي العربي أن يلاحظ عدداً من الأفكار النقدية، التي أثمرتها جهودُ النقاد العرب القدامى، في مدى تسعة قرون على وجه التقريب، وذلك من خلال نصوصهم الموثقة في المصادر الأدبية والبلاغية والنقدية، كما يمكنه أن يرى تلك الأفكار متميزة تمايزاً ظاهراً، جعل كل فكرة تتسم بصوت خاص، أو تبدو كخطاب منفرد، يوجهه ناقد أو عدد من النقاد إلى المتلقى قارئاً كان أو سامعاً، بغرض الكشف عن طبيعته ولامحه.

والواقع أن تاريخ "حركة النص النقدي العربي"، ابتداءً من عصر الازدهار الأبي في القرون الهجرية (الثالث، والرابع، والخامس)، وحتى فترة التراجع عن ذلك الازدهار، التي بدأت من القرن التاسع الهجري واستمرت إلى مطلع القرن الرابع عشر، الذي وافق منتصف القرن التاسع عشر الميلادي - حيث جرت محاولات إحياء الألب العربي - الواقع أن تاريخ هذه الحركة قد شهد في ذلك العصر بنز هذه الأفكار، واستتباتها، ونموها، وتكاملها، واستقرارها بنظرات الرواة واللغويين والبلاغيين والنقاد.

وقد حظيت كل فكرة منها بتلك النظرات التي نجدتها في كتبهم
ورسائلهم العديدة، وفي المؤلفات الموسوعية لغيرهم، التي اتسمت
بسمات الجمع والتصنيف - غالبا - والتحليل المحدود لمسألة ما في
هذا الموضوع أو ذاك من تلك المؤلفات.

والمؤكد أن هذه الأفكار قد دعمت تاريخ النص النقدي بما
تشتمل عليه من أصوات جادة، تمثل "خطابات قصدية"، أراد لها
أصحابها النمو والانتساع والاطراد؛ ثم الثبات في أذهان الأجيال
الأدبية المتعاقبة، ومن ثمّ أمكن لنا أن نقف على اتجاهات ثلاثة
ارتكزت على هذه الأفكار في رسم الحدود الفاصلة بينها. الأول:
نقدي لغوي يعرض للتعبير من ناحيتي صحة البناء النحوي،
وصحة الصيغ من حيث تقيدها بالوضع أو التقليد المتفق عليه، أفاد
فيه أصحابه من الدرس النحوي واللغوي، الذي نهض به علماء
النحو واللغة. والثاني: نقدي بياني، عمد فيه أصحابه البلاغيون
والنقاد والمتأدبون - إلى دراسة النص الأدبي، على أساس من
العناصر الفنية، اللفظية والمعنوية. والثالث: نقدي متفلسف نحاه فيه
نقاده المتفلسفون بالنص الأدبي منحى أدبيا متفلسفا؛ نتيجة تأثرهم

العميق بالفكر الفلسفى اليونانى، قد رسوه فى ضوء قوى العقل
والنفس والإلهام والخيال، ووظائفها فى صياغة الفن الشعرى.

ويلاحظ أن هذه الاتجاهات الثلاثة تتضمن فكرة نقدية تعنى
بدراسة النص الأدبى بوجهه النفسى، وذلك بنصوص غير قليلة
تدرج تحت كل اتجاه، بحيث بدت هذه الفكرة "خطاباً" نفسياً، متميز
الصوت، يخاطب به نقاؤه المتلقى، إلى جانب أوجه الخطاب
الأخرى الموجهة إليه بتلك الاتجاهات.

حقاً إن عدداً من النقاد العرب المعاصرين قد بحثوا "اللزعة
النفسية" فى بعض نصوص النقد العربى القديم بنهج نظرى
وتطبيقى، يمثل إضاءات باهرة مؤثرة يسترشد بها - دون شك -
الباحث عن الطاقات النفسية الكائنة فى نصوص هذا النقد، ولكن
بحثهم فى هذه اللزعة كان -وما زال- فتحاً جديداً احتاج دائماً إلى
تعزيز ودعم وتطوير وتنمية. ومن الضرورى أن ينهض بها من
أتى بعهدهم من الباحثين، خاصة بعد أن تم اكتشاف نصوص
جديدة، فتتوعدت بسبب ذلك الرؤى فى هذا النوع من النقد، وتعددت
النظرات إليه.

ومن هنا جاز لنا أن نقول: إن بحوث هؤلاء الرواد تتطوى على ثلاثة أهداف ليست إلا "دعوة" متصلة لاستمرار البحث والفحص والنقوى، و "حافزا" إلى بذل الجهود وتقديم الإضافات بقراءات متعددة فى نصوص النقد العربى، و"حثاً" على طرح رؤى أخرى ينبغى أن تكون مقفحة لمجاهل جديدة، تهدف إلى تطوير هذا النوع من الدرس النقدى.

ولا شك أن هذه الأهداف الثلاثة كانت قريبة منا ملتصقة بنا نستهدىها وننكرها حين اتجهنا فى بحثنا هذا اتجاهنا نرجو أن يعين فى تحديد تصور جديد لآراء نقادنا القدامى فى جوانب العمل الإبداعى أو مشكلاته التى تتعلق بكل من الشاعر والمتلقى. وهى جوانب دعت إلى تقسيم هذا الكتاب إلى خمسة فصول.

أما الفصل الأول: وهو "فاعلية الحافز" فإنه يدرس نوعين من القوى، أولهما: القوى القصدية الإرادية التى تختص بمتابعة المعنى الطائر المحلق المتأبى، وترجيعة فى النفس بعد التمكن منه والسيطرة عليه، وثانيهما: القوى التسلطية المتمثلة فى الرغبة والغضب والطرب والإلهام، كما يعنى هذا الفصل بفحص قوى الموهبة النفسية التى تتحصر فى الطبع الصافى المزود بقوى الرواية والنكاء والدربة.

ويتصدى الفصل الثانى: لدراسة طائفة من العوامل المؤدية إلى اختلاف الطبائع وتباين الأمزجة، والتنوع البيئى والزمنى، والتحول الحضارى، وخصوصية الهيئة الجسمية.

وأما الفصل الثالث: فإنه ينصرف إلى فحص نفسية متلقى النص الأدبى، من جهة إثارته "التأمل الباطنى"، ورصد "انفعاله" بالعنصر الفنى الفعال، واستبطن "استغراقه" فى هذا النص الملقى إليه نتيجة المشاركة الوجدانية، والاندماج الفنى.

ويتناول الفصل الرابع: لغة العمل الأدبى الشعرى، من حيث تأثيرها فى نفس المتلقى، وذلك فى ضوء الوظيفة النفسية لكل من "الصوت" "اللفظ" منفردًا، ومتجاوزاً مع غيره، و"الصورة الجزئية"، بوجوهها المتضادة، والمنفردة، والغريبة، و"الثنائية اللغوية"، القائمة على إشكالية الصراع بين الجذب العاطفى، والتحكم العقلى.

ويعد الفصل الخامس والأخير: إلى دراسة فكرة القدماء عن "الإيقاع الشعرى" بوجهيه: "الخارجى"، المائل فى عنصرى الوزن والقافية، من حيث اشتمالهما على طاقات نفسية مؤثرة، و"الداخلى" المتعين فى "التنغيم" اللغوى، الذى يحتوى على عدد من الوجوه الصوتية المتوافقة والمتخالفة فى النص الشعرى.

وقد حرصنا في هذه الفصول الخمسة على "التقيد بنظرة متوازية"، إلى النصوص النقدية موضع النظر والفحص، دون خضوع لإعجاب متطرف أو تحمس مبالغ فيه لأصحاب هذه النصوص، وعلى "الارتباط الوثيق بأفكارها"، بغرض إشراك القارئ المكترب في تأملها، وتكوين فكرة منصفة عن الرؤى المستخلصة منها.

وأسأل الله التأييد والصواب

حسه البنداري